

حديث آمنة

كنا على شاطئ البحر يعلو حديثنا أمواجه حيناً ويتيح السكوت لصوت الأمواج أن تملأ آذاننا حيناً آخر ، حتى مرت بنا آمنة . رشيقة القوام مشرقة الوجه باسمعة الشعر ، يزيداها جمالا بساطة ما تلبس وحسن اختيار ما تزين به : وإذا صديقتي تقول ، هذه آمنة . فنظرنا إليها جميعاً وابتسمنا تحية لها ، فابتسمت وسارت في طريقها . ولكن صورتها لم تغادر عيوننا ؛ فقد انبرت صديقتي تسألني : ما رأيك في آمنة تلك ؟ قلت إنها طيبة على أساس من الخلق متين فيما سمعت . قالت إنما اسأل عن شكلها . قلت إنها جميلة أو تكاد تكون ؛ إنني لم أرها إلا مرّات قليلة ، وأكثر ما رأيتهابارة كما عبرت بنا الآن ؛ ولكنك أنت صديقتها وزميلتها ورأيك فيها أصدق من رأيي . قالت : إنني لأراها جميلة جداً ، ولكن كانت منّا من تراها قبيحة . كم أثار في نفوس زميلاتنا الحسد وهي لا تدري أنها تثير في نفس أحد شيئاً . كان لها عالمها تسبح فيه ، ونحن من حولها نظن أنها معنا ونحار في أمرها ، فلا هي تغضب أحداً ، ولا هي ترضى عن أحد . كنا نراها باردة جامدة متكبرة ؛ فنّا من احتملتها ولم يغير هذا من نظرتها إليها ؛ ومنّا ، وهذه كانت كثرتنا ، من أبغضتها ونقّست عن بغضها وحسدها بالحط من شأن جمالها بل بمهاجتها أحياناً . ولكنها كانت كالنجم عالية لا تحس بهذا الصخب الذي يتصاعد من سكان الأرض . كم ظلمناك يا آمنة ! كنا نظن هذا كبراً منك وزهواً بجمالك واعتزازاً بمالك ؛ فقد كنت أيسر منّا حالاً وأسعد حظاً . ولكن حسدنا إياك كان أجدر أن يكون شفقة بك . فمن العسير أن تحرم المرأة مالاً وجمالاً ، ولكن الأعرس منه أن تمنحهما فلا يتيسر لها أن تنعم بهما . لقد صرفت حياة آمنة عن مالها وجمالها صرفاً ، وإذا هي تشقى ولا تعرف لنفسها من الشقاء مخلصاً .

ثم سكنت صديقتي وعلا صوت الأمواج صوتها وتنهدنا جميعاً من غفوة الإنصات إليها . ولكنى لم أطق أن أسمع من حديث أمّنة هذا القدر دون أن أعرف ما أوحاه . فقلت . ومن أين يأتي الشقاء تلك المخلوقة الهادئة الجميلة ؟ قالت : من قلبها ، وإنه لقلب كبير عظيم له جلال مظهرها وجماله وعذوبة حديثها وحلاوته . ثم سكنت الصديقة هنيئة كما تتحاور أن تستعيد الذكريات ، واندفعت في كلامها بعد حين لم تنتظر سؤالاً ولا استفساراً ، ولكنها ، كعادتنا في سرد ما لا يُعرف من الأخبار ، استحلقتنا ألا ننقل إلى أحد مما سمعنا شيئاً ، فكدنا لها ذلك ، فقالت :

كان ذلك في يوم صاف مشرق دافئ من أيام أبريل ، يوم لن أنساه ؛ فقد هز مشاعري أكثر من أى يوم من أيام حياتي ، وكنا فيه في المدرسة وقد دق جرس انتهاء الدرس . فاندفعنا نحن المعلمات إلى غرفتنا وكأنا قد أنقذنا إنقاذاً . وإذا أمّنة تدخل علينا متأخرة كعادتها ؛ فقد كانت تحب تلميذاتها ومحببتها حبا عجيبا ، فاستطاعت بهذا الحب أن تقهر ملال الدرس وسخافة التلميذات ، المشاكسات . ولكنها ما كادت تستقر في كرسيها حتى دخلت علينا تلميذتنا هدى ، وهي صبية في الخامسة عشرة من عمرها ، كثيرة الاجتهاد ، شاذة الذكاء تكاد تكون قبيحة لولا بريق من الذكاء يلمع في عينيها الكبيرتين ، وابتسامة مشرقة تشع في وجهها أبداً . وكنا جميعاً نحب هدى هنه ؛ لأنها كانت رقيقة الإحساس ، مهذبة الطباع ، ذكية الفؤاد ، تدل تصرفاتها جميعاً على أنها من أصل طيب يمتاز بالرقى أكثر مما يمتاز بالمال .

واقتربت هدى من أمّنة وقالت : إني آسفة على ما قد بدر مني فسأجيبني . فنظرت إليها أمّنة مضطربة تكاد تدمع عيناها ، وقالت في شيء من الجفاء لم نعهده فيها : لقد ساحتك . ولكن هدى انفجرت في البكاء وهي تقول : أنت آخر من كنت أريد أن أغضبها مني . فقامت أمّنة تهديء من روعها وتحفف دمعها وهي تقول لها : لم أغضب منك . عودي إلى صاحباتك يا هدى والعبي معهن بدل أن تضيعي وقت راحتك في تلك الغرفة الثقيلة . إني لست غاضبة . إني أحبك يا هدى فعودي . وكأنا كانت تريد أمّنة أن تخلص منها في سرعة ، ولكن هدى تعلقت بها وهي تجهبش بالبكاء قائلة في صرخة شاذة : وأنا أحبك ، أحبك أكثر من أمي . ليتك كنت أمي . نعم ! ليتك كنت أمي ! ولم تكد أمّنة

تسمع هذا حتى سقطت على كرسيها ، وأخذت إحدانا هدى من يدها وأخرجتها إلى الحديقة . والتفت أنا إلى آمنة فقد كنت لها الصديقة الوحيدة إذ ذاك فإذا يدها كالثاج وعيناها غائرتان من الإعياء . تخشيت أن يكون قد أصابها شيء ، فضغطت على يدها وقلت لها : مالك يا آمنة ؟ قالت : لا شيء لا شيء . ودق الجرس واندفعنا إلى حجر الدرس ، ولكن آمنة اعتذرت إلى الناظرة وعادت إلى منزلها متعبة .

ولما عدتها في هذا المساء وجدتها تذرع غرفتها ذهاباً وإياباً في اضطراب عنيف . وجلست إليها أهدئها وأستحشها على الكلام ، ففي البوح بما تكتم شفاؤها ، فقصت عليّ قصتها :

كان ذلك منذ أعوام كثيرة مضت وآمنة تستقبل الحياة في طهارة الفتاة الطيبة واستبشارها . قالت : ولم أكن أرى في هذا المستقبل البعيد شيئاً . لم أكن أحلم بالأمومة ولا بالزوجية ، كلا ولا بالحب . كان مستقبلي البعيد غدى وما سأعمل فيه مع صديقتي في المدرسة . لست أدري لماذا ظلت إلى هذه السن المتأخرة ، فقد كنت في العشرين تقريباً لا تداعبني أحلام تداعب كل فتاة قبل هذه السن بأعوام . لعل تربيتي كان لها أكبر الأثر في ذلك ، فأنت أعلم بأسرتي وأحوالها . وكانت أختي الصغيرة هي سلوتي . أحبها كما كنت أحب دمي . ولكن العجيب أنني لم أتمن أن تكون لي بنت في جمالها . ولو قد تمنيت ذلك وأحسسته لربما أنقذت مما قد وقعت فيه . لست أعرف كيف أبدأ حديثي إليك ، ولكنني أظن أنه قد بدأ عندما مرضت أختي الصغيرة مرضها الأخير ، فعادها الطبيب وفي صحبته عمي سعيد كما كنت أدعوه ؛ فقد ألفت أن أراه في بيتنا منذ كنت طفلة . كان صديق أبي وشريكه في تجارته وزوج ابنة عمه التي كانت تزورنا قليلاً ؛ لأن أمي لم تكن تائفها ولا تحبها . وكان بغض أمي لها لا يفسر بما كان يشاع من أن أبي كان سيتزوجها ليس غير ، ولكن لشراسة تلك السيدة وقسوة قلبها أكبر الأثر في تقور الناس منها . وكانت تزورنا وكأنها مضطرة إلى تلك الزيارة ؛ لأن زوجها كان يجب أن يحبها ، وكان يجب أن يجلس إليه ليتحدثا في شؤون تجارتها أحاديث طويلة . وكان عمي ، كما تعودت أن أدعوه ، أكثر من أبي علماً وأقل مالا . ولعل في قول أبي إنه شريكه كثيراً جداً من التجاوز ؛ فلقد كان في الواقع يساهم في تجارة أبي بمقدار

ضئيل، ولكنه كان يقدم لهذه التجارة في إخلاص كل ما كانت تحتاج إليه من خبرته القانونية ومعرفته العامة بالدنيا والناس. فلقد كان مثقفا ثقافة ممتازة. عاش في أوروبا أعواماً وزار أكثر بلادها، ودرس عن كتب أسواقها التجارية، كما بما كان يميل بفطرته إلى التجارة فلم يسعفه رأس المال. فلما اتصل بأبي صلة النسب والصدقة التي مهدت لهذا النسب وجد عنده ما كان ينقصه فتمت ثروة أبي على يديه نماءً عظيماً، وأصبح عنده هو من رأس المال ما لم يكن يطمع في أن تيسره له خبرته العملية وحدها.

ولكن مالي أطيل عليك في هذا! لقد كان كل منهما مكملًا لصاحبه في الحياة العملية، وكذلك كانا في حياتهما الروحية فيما كنت أحس. وثقل المرض على أختي في أيامها الأخيرة فكانت زيارته لنا يومية ثم عجزت أمي عن العناية بالمریضة الصغيرة إذ مرضت خوفاً وقلقاً، ولم يكن بد من أن أمرض أنا الإثنتين. أتذكرين تغيبي عن الدراسة إذ ذاك شهراً كاملاً؟ ثم ماتت أختي وطال مرض أمي وشقاؤها، ولكنها شفيت لتعيش كما ترينها الآن حزينة والهة على تلك الصغيرة الجميلة. فلم يبق لها بعدها إلا أنا، وأنا كما ترين لا أملاً فراغ قلب أو بيت. ألفت عمي وأحبته حباً بدأ أبوي وانتهى عنيفا. ولعله هو الذي أيقظ في هذا الشعور النائم الحالم بالحياة والحب. فمنه سمعت أولى كلمات الإعجاب الملتهبة بالعاطفة الصادقة. ولكنه كان يقاوم هذا الحب مقاومة عنيفة لا من أجل زوجه ولا من أجل هدى، فهدي تلك ابنته، ولكن من أجل أنا. كان يقول لي إن الفرق بيننا في العمر أكثر من ربع قرن، فإن أسعده هذا الحب مدى الحياة فلن يسعدني أنا إلا أعواماً قصيرة. وكنت أنفي عنه هذه الفكرة. ولكنني لم أكن أفكر يوماً في أن أكون له زوجة. كان حبه لي حباً أفلاطونياً كما يقولون. يعبدني كما يعبد الوثنيون أصنامهم ولا يكاد يلمسني كما ينجشون هم لمس ما يعبدون. وعشت في هذا النعيم عاماً، لا أفكر إلا في متى ألقى عمي سعيداً ومتى أخلو إليه لتتحدث فيما كان يجيده من فنون الحديث. والعجيب أنه لم يكن ليشير إلى زوجه ولم أكن لأشير إليها أنا أيضاً، كأننا كنا لا نريد أن نعكر صفو أحلامنا بالواقع المرير. ونجاة عرض علي في يوم من الأيام أن أتزوجه، فهبت لهذا العرض. وكنت أسمع طوال هذا العام أنه كاره لعيشه مع زوجه، ولكنني كنت قد ألفت هذه الأخبار لأنه لم يهنا في

عيشه معها يوماً . ولكن حبه هدى كان مضرب الامثال ، وكنت أعلل بقاءه مع زوجه واحتماله أخلاقها بحبه هدى . فإذا حدثت ؟ قلت له إني لا أريد . قال فكري في الأمر ، وتركني . وفكرت فوجدته مستحيلاً . كيف أحرم طفلة كهذه من أمها مهما تكن ، وقلت له : إن آخر رأيي كأوله لن أحرم هدى من أمها . قال : إني أحبها أكثر منك وأنا أدري بصالحها . قولي إنك لا تريدني أنا . قلت : هو هذا ؛ ولن أحرم هدى من أمها . وكان هذا آخر ما كان بيننا . وظل عمي سعيد يدخل بيت أبي فلا أتخاشاه ولا أتعمد لقاءه . وفترت حرارة الحب لولا جرات صغيرة تحت الرماد ، بل لقد مرت بي فترات كنت أنظر إليه ، فأعجب مما كان بيننا من عاطفة حارة . حتى فضت الشركة بينه وبين أبي ، ورحل هو إلى أوروبا لأعمال تجارية قد تنقذ ثروته من الضياع . فخرت لفراقه ، ولكنني في الوقت نفسه ارتحت إذ ظننت أنه قد أسدل الستار على كل ما كان بيننا . ولكن أخباره عادت تملأ البيت من جديد . واستقل بتجارته ، ولم ير أبي لذلك سببا ، ولكنني كنت على يقين منه . وافترقا صديقين . وعاد لتجارة أبي وواجهها في هذه الحرب ، حتى إن ثروته لم تنقذ بحسب وإنما تضاعفت ، ولولا وفاته منذ أعوام لأصبحنا من أغنياء الحرب .

وفي هذه الأثناء كبرت هدى وجاءتني تلميذة منذ العام الماضي . فأيقظ مظهرها هذا الحب القديم من مدفنه ، وبدأت أفكر في عمي سعيد من جديد ترى ما أحواله . قالت لي أمي مرة كأنما تروى خبراً عابراً : إن هدى بنت فلانة عندك في المدرسة ؟ قلت نعم . قالت : كيف هي ؟ قلت : ذكية طيبة . قالت : ما أشقاها ! قلت : لماذا ؟ قالت : بأبها . قلت : ولكن لها أبا تحسد على حبه لها . قالت : إنه أفسس . فخرجت من الغرفة حتى لا يلحظ على أحد شيئاً . ترى لماذا أفسس ؟ وهل كنت أنا عاملاً في هذا ؟ فلقد كنت السبب ولا شك في استقلاله عن أبي ، وربما كان هذا هو سبب إفلاسه . ولكنني اعتدت أن أدفن هذه الآلام بالخروج إليك ، فكنت آتيك على غير ميعاد لتتحدث . أتذكرين ؟ قلت أذكر ، ولكنك لم تقولي شيئاً من هذا . قالت : وكنت أريد ألا أقول شيئاً أبداً ؛ فلقد كنت على يقين من أمرى حتى اليوم . كنت كلما نظرت في عيني هدى الواسعتين البراقتين قلت في نفسي كم وقعت فيما ارتأيت لحياتي من مسلك . ألسنت أستطيع اليوم أن أنظر إلى هاتين العينين مرتاحة الضمير قوية القلب فلا يرتد بصري ولا

أشيع بوجهي خجلا منهما ! إني لم أعذب تلك المخلوقة الساذجة ولم أضح بها
لأسعد أنا . كم كنت على حق ! إني ألك يا هدى فأعطف عليك في حرية
واطمئنان ورضا عن نفسي .

وكانت كلمة أمي : « ما أشقاها بأما » ترن في أذني أحيانا فأفكر فيها طويلا
وكثيراً . فلقد كبرت وعرفت من أخبار هذه الأم كثيراً . إنها لا تعيش إلا ظلاً
لزوجها وأمر هدى يأتي في المرتبة الثانية إن أتى . فإن حنا عليها زوجها ،
وأنفق عليها في سعة من ماله خفّت حدتها ولانت قسوتها . ولكن الويل
لهدى بل لكل من يمر بحياتها إذا ما جفاها زوجها ، أو قتر عليها في المال .
وهذا هو قد أفلس ، والإفلاس يستتبع شذوذاً في الخلق ونفوراً من الناس بل
كرهاً لهم . ترى ألعاني من جفاء أبيها لأمها كما كانت تعاني طفلة ؟ إنها اليوم
صبية تفهم كل شيء حولها . ترى أنشقي بهذا الفهم ؟ وكنت أسائل نفسي كثيراً :
أخيراً كان ما فعلت أم شراً ؟ ألم أكن أستطيع أن أنقذ هذا الرجل من الإفلاس
وأنقذ هدى من قسوة أمها ، ولكن أأحرم هدى أمها ؟ هذا مستحيل . إنها
لن تحس قسوة أمها إلا إلى حين ، ثم تعود فلا ترى أحداً كهذه الأم .

وهكذا انقضى العام الماضي وأنا أفكر في هدى وفي نفسي . أسائل نفسي
مرات في اليوم : أخيراً كان ما فعلت أم شراً . وأنا لا أريد أن أستطلع شيئاً ،
أو أسأل عن شيء . وفي يوم رأيت عمي سعيداً من بعيد ، وكانت الصلة بينه
وبين أسرنا تكاد تكون قد قطعت بعد أن أصبحت لا تعتمد إلا على قرابة
أبي لزوج سعيد وكره أمي لها . وجمعت طرفاً من شجاعتي وتقدمت إليه
وصاحته . فصاحني ثم تحاشاني وسار في طريقه ، يا لهول ما قد تغير ! إن التجاعيد
ملأت وجهه وبهت نور عينيه حتى كاد يظنفاً . إنه الآن رجل قد جاوز الخمسين
بقليل ولكنه يبدو في الثمانين من عمره . وعدت إلى نفسي ذلك اليوم باكية
حزينة أسائلها في حرارة : أخيراً كان ما فعلت أم شراً . وأبعدت الموضوع
في عنف وجهه وأنا أقول : وهل يمكن أن تكون الفرقة بين أم وابنتها خيراً ؟
وأخيراً لا أطيل عليك ، فقد رأيت اليوم وسمعت ما رأيت وسمعت : « ليتك
كنت أنت أمي » . نعم حتى هدى معقلي الأخير الذي كنت أعتصم به في أني
ما فعلت إلا الخير يسقط أمامي كأن لم يكن . حتى هدى تريدني بعد نحو عامين
من معاملتي لها كتلميذة أن أكون لها أما . إن صرختها لم تكن صرخة عابرة .

إنها صرخة من الأعماق ونداء من القلب . إنها تحبني ، وكان يمكن أن تحبني وتسعد بدل أن تشقى بحب أمها . ترى أقال لها أبوها شيئاً ؟
واستمرت آمنة تتحدث كأنما تناجى نفسها وهي تبكي . كم رثيت لها !
حقاً لقد كانت صرخة هدى صرخة شاذة ، ولكن أقول لآمنة إننا ذهلنا لها
جميعاً ؟ كلا !

قلت لآمنة : إنها صبية لاتدرك شيئاً ، ولم يكن في صوتها وقد سمعتها أكثر من إحساس عادي بالندم لأنها أغضبتك . ومن هي من تلميذاتك التي تحب أن تغضبك ! ثوبى إلى رشذك . لقد فعلت خيراً ، وكان إتماماً لهذا الخير ألا تظلمني نفسك وتستجيبى لأحد الكثيرين الذين طلبوا يدك وكانوا لك أكفاء . قالت :
إنى لا أزال أحبه . قلت هذا وهم يجب أن تخلصى نفسك منه . لقد فعلت خيراً ولا تفكرى لا في هدى ولا في سعيد . إن الام إن كانت وحشاً ضارياً فهى أحن على ابنتها من زوج الأب . فكرى فى أنك كنت ستصبحين أمماً لغير هدى ، وفكرى فى إمكان المساواة بين هدى وبين ابنك أو ابنتك . صدقيني يا آمنة لقد فعلت خيراً . خفى من عبرتك ، وانظرى إلى الحياة . إنها تقبل عليك إقبالا فلك فيها المال والجمال ، ولعمري إنهما لكفيلان بإسعاد أشقى امرأة . استبشرى والبشر يا تيك . قالت آمنة فى هدوء : ياليت هذا يكون . وخرجنا إلى الزهرة ثم عدنا وقد اطمانت نفس آمنة كثيراً .

ولكن آمنة لم تعد إلى المدرسة أسبوعاً وأسبوعين . وكنت كلما ذهبت إليها قالت إنى لأطيق أن أرى هدى . قلت لها : كلا ! بل ترينها وترينها وتنظرين إلى عينيها الواسعتين وأنت مطمئنة سعيدة . إنك لم تكونى سبباً فى شقاءها . اعطنى عليها ماشئت أو تجنبيها إن شئت ، ولكن لاتنسى أن تنظرى إليها وأنت رافعة الرأس مطمئنة القلب . لقد جنبتها أن تبكى لتسعدى . قالت مستبشرة : أحقاً ما تقولين ؟ قلت كل الحق .

وبعد أسابيع عادت آمنة إلى درسها ولكن هدى لم تعد ؛ فقد انتقلت إلى مدرسة أخرى لسبب لاندريه . أقلت لأبيها شيئاً فتصرف هكذا فى ابنته أم أن المقادير هى التى تصرفت فى أمر آمنة هذا التصرف ؟ وتابعت آمنة عملها فى اطمئنان وهدوء ونشاط . وسرعان ما عادت إلى سمائها . وفرت صداقتنا لأنهما لم تشجع على استمرارها ، وابتعدت عنها تحقيقاً لسعادتها ؛ فقد أكون لها ذكرى

حديث آمنة

لا تحب أن تمرّ بفؤادها كثيراً . وعاد قلب آمنة مقفلاً كالحصن . كم اشتقت أن أعرف ما يدور بهذا القلب من عواصف واضطراب ! ولكن آمنة لم تشجع أحداً على الدنو منها . وها هي ذى تسير إلى اليوم بيننا في جماها وجلالها تعلق وجهها الجميل مسحة من الحزن لا يراها إلا الأقربون . ثم سكت صديقتي هنيئة لتقول كأنما هي تقول لنفسها : ترى أخيراً كان ما فعلت آمنة أم شراً . حقاً لست أدري .

ومرّت بنا آمنة عائدة بعد أن انتهت من زيارة أو رياضة ، فتأملتها فإذا في ابتسامتها مرارة تزيد من جمال ثغرها ، وإذا في عينيها حزن يزيد عمقا وسحراً ، وإذا هي في جماها وجلالها ومن ورائها البحر بامتداده واتساعه كالمركب الضائع في لجج البحار . إنها أروع صورة للهائين على وجوههم في هذه الأرض لا يدرون أعلى بر النجاة نهايتهم أم في هذه الأعماق السحيقة المخيفة سيكون المصير .

سهرير الفهماري